

## محنة الإمام البخاري بمسألة اللفظ بالقرآن الكريم

زياد أبو حماد

قسم الشريعة، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن

### ملخص

الإمام البخاري أحد الأئمة الأعلام في الحديث، تعرض لمحنة اللفظ بالقرآن الكريم، وهي مسألة متفرعة عن مسألة خلق القرآن، وتظهر هذه الدراسة الدوافع والآثار لهذه المحنة، ولا سيما ما حصل لكتابه التاريخ الكبير، محاولاً الرد من خلال كلامه ومصنفاته ووجهة نظر العلماء في هذه المحنة، وتبين لنا أن البخاري أخذ بلازم كلامه لا بصريح لفظه.

### ABSTRACT

I mam AL-bukhari one of the greatest scholars In Ulum Al-hadich (the scieneas of tradition). was involved in the problem of reciting Quran(Al-Lafiz) which is apart of problem of the creation of Quran.

This study show the reason and effect of this hardship . On the other hand it is foucaus on his book (AL-Tarikh Al-khabir) which is acorher-stone of criticism in the biography of harrators (Ruwaht Al-hadith).

Try to collect his saying , writing and his views relating to this matter.

It is drow aconclusion that AL-Bukhari was taken by the meaning and not pure (stranght for ward) of his saying.

## المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان مالم يعلم ، وقرب العلماء إليه وأكرم ، والصلاة والسلام على أول معلم ، وخير من بين وأفهم وعلى آله وصحبه وبعد :

فلقد حظيت السنة النبوية باهتمام علماء الأمة ؛ فهي المبينة والمفسرة للقرآن الكريم ، والمصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي ، فقيض الله لها الأفاضل من العلماء الذين حفظوها وصانوها ؛ فقعّدوا القواعد لتمييز صحيحها من سقيمها ؛ فكانت لهم الإمامة والمكانة الرفيعة . ومن هؤلاء : إمام الأئمة الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري ، المولود سنة (١٩٤هـ) في مدينة بخارى ، ونشأ يتيماً في بيت علم وتقوى (١) ، ودخل الكتاب صغيراً ، فألهم حفظ الحديث ، وبعدما بلغ العاشرة من عمره أخذ يتردد على مجلس الداخلي فقرأ الشيخ ، سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم ، فقال البخاري : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم ، فانتهره الشيخ ، فقال له : ارجع إلى الأصل ، فدخل ثم خرج فقال : كيف يا غلام ؟ قال البخاري : هو الزبير بن عدي عن إبراهيم فأخذ القلم وأصلحه وقال صدقت (٢) ، ولما بلغ السادسة عشرة ، خرج إلى الحج مع أمه وأخيه ، وأقام في مكة والمدينة ، وبدأ بتصنيف كتابه التاريخ الكبير عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ، وهكذا اشتغل البخاري في الحديث والرجال حتى برع فيهما وأصبح علماً يشار له ، ويشهد له كبار مشايخه وعلماء عصره ، قال عمرو بن علي الفلاس : حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث (٤) . وكان يحدث عن نفسه ويقول : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح (٥) ، وجمع إلى هذا العلم تقوى وورعاً قال : ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً الا واغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين (٦) ويقول : أرجو ان ألقى الله ولا يحاسبني أنني أغتبت أحداً (٧) وذلك في كلامه على الرجال جرحاً وتعديلاً .

تعرض الإمام البخاري إلى المحنة كغيره من العلماء ، فامتحن بمسألة اللفظ بالقرآن الكريم ، وهي مسألة متفرعة عن مسألة خلق القرآن الكريم التي امتحن بها الإمام أحمد وآخرون في القرن الثالث الهجري ، والفارق بينه وبين أحمد ، أن أحمد امتحن من قبل الحكام ، فيما امتحن البخاري من قبل أقرانه ومن كانوا محبيه بالأمس ، وعلى رأسهم محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري ، ولوجئ البخاري بسبب ذلك من بلد إلى بلد إلى أن توفاه الله في خرتك سنة ٢٥٦هـ .

وقد قسمت هذا البحث إلى أربعة مباحث :-

المبحث الأول : في التعريف بمسألة اللفظ بالقرآن الكريم .

المبحث الثاني : محنة البخاري بمسألة اللفظ ودوافع المتهمين له .

المبحث الثالث : بيان عقيدة الإمام البخاري في المسألة .

المبحث الرابع :- آثار المحنة على الإمام البخاري .

سائلاً المولى عز وجل التوفيق والسداد في القول والعمل .

## المبحث الأول

### التعريف بمسألة اللفظ بالقرآن الكريم

#### اللفظ في اللغة

اللفظ: - أن ترمي بشيء كان في فيك ، يقال: لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظاً رميته، وذلك الشيء لفاظة ، قال ابن بري: واسم ذلك الملفوظ، لفاظة ولفاظ ولفيظ ولفظ، ولفظ بالشيء يلفظ لفظاً: تكلم، وفي التنزيل العزيز، «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (٨) ولفظت بالكلام وتلفظت به أي: تكلمت، واللفظ واحد الألفاظ (٩). إذن فاللفظ من حيث اللغة هو الكلام الخارج من الفم.

#### مفهوم المسألة عند العلماء

أصل هذه المسألة مسألة خلق القرآن الكريم، فالقرآن ينظر اليه من جهتين، أحدهما: مصدره وهو أن الله تعالى متصف بالكلام، وأن هذا القرآن الكريم كلامه سبحانه، والثاني: هذه الحروف وتلك الكلمات المكون منها، والمعاني التي تدل عليها الكلمات، التي تفهم من العبارات، وهاتان الوجهتان هما محز الخلاف، فأما الأول فقد نفى المعتزلة صفة الكلام عن الله؛ لأنها من صفات الحوادث، وما أسند إليه أنه تكلم، فلائنه خلق الكلام في الموضع الذي صدر عنه هذا الكلام، فكلامه لموسى بخلقه الكلام في الشجرة. وغير المعتزلة من أهل السنة والجماعة أثبتوا صفة الكلام لله تعالى وبناء على ذلك فالقرآن كلام الله تعالى، فيكون غير مخلوق، وبالنسبة للثانية وهي: الحروف التي تقرأ، والمعاني التي تفهم، فالمعتزلة على طريقتهم يقولون مخلوقة، والإمام أحمد ومن ورائه أهل السنة يقولون: إنها غير مخلوقة؛ لأنها مظهر لكلامه سبحانه وتعالى (١٠) قال الامام أحمد: يتوجه العبد لله تعالى بالقرآن بخمسة أوجه وهو فيها غير مخلوق؛ حفظ بقلب، وتلاوة بلسان، وسمع بأذن، ونظرة ببصر، وخط بيد. فالقلب مخلوق والمحفوظ غير مخلوق، والتلاوة مخلوقة، والتلو غير مخلوق، والسمع مخلوق، والمسموع غير مخلوق، والنظر مخلوق والمنظور إليه غير مخلوق، والكتابة مخلوقة والمكتوب غير مخلوق (١١)، فأعمال العباد مخلوقة والقرآن حيث تصرف وأين كتب وحيث تلي، كلام الله تعالى غير مخلوق (١٢). قال ابن حزم: أما الصوت فهو هواء يندفع من الحلق والصدر والحنك واللسان والأسنان والشفقتين إلى آذان السامع وهو حروف الهجاء، والهواء وحروف الهجاء وكل ذلك مخلوق بخلاف. والمصحف إنما هو ورق من جلود الحيوان ومركب منها ومن مداد مؤلف من صمغ وزاج وعصف وماء، وكل ذلك مخلوق بلا شك، وكذلك حركة اليد في خطه وحركة اللسان في قراءته واستقرار كل ذلك في النفوس، هذه كلها أعراض مخلوقة (١٣).

### آراء العلماء في الخوض في هذه المسألة

لقد تبين لنا أن العلماء قد فرقوا بين أصل الكلام من حيث مصدره، وهو صفة من صفات الله، وبالتالي فهو غير مخلوق عند أهل السنة والجماعة، وبين أصواتنا أو ألفاظنا بالقرآن الكريم فهذه من أفعالنا، وأفعالنا مخلوقة. لكن مارأى العلماء في الخوض في هذه المسألة وماهي مبرراتهم لأحكامهم؟

أ- الإمام أحمد: فقد ورد عن الإمام أحمد أنه وصف من قال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ومن قال: ألفاظنا غير مخلوقة كليهما بأنه مبتدع (١٤). ويوضح السبكي ذلك فيقول: إن أحمد رضي الله عنه أشار بقوله هذه بدعة إلى الجواب عن مسألة اللفظ. إذ ليست مما يعني المرء، وخوض المرء فيما لايعنيه من علم الكلام بدعة، فكان السكت عن الكلام فيه أجمل وأولى. وقال: والصواب عدم الكلام في المسألة رأساً مالم تدع إلى الكلام حاجة ماسة، ومما يدل على ذلك، أن السلف لاينكرون أن لفظنا حادث، وأن سكوتهم إنما هو عن الكلام في ذلك لاعن إعتقاده (١٥).

ب- ابن حزم: قال: فإن سأل سائل عن اللفظ بالقرآن، قلنا له سؤالك هذا يقتضي أن اللفظ المسموع هو غير القرآن، وهذا باطل، بل اللفظ المسموع هو القرآن نفسه، وهو كلام الله عز وجل نفسه، كما قال تعالى «حتى يسمع كلام الله» (١٦) وكلام الله تعالى غير مخلوق، وأما من أفرد السؤال عن الصوت وحروف الهجاء والخبر فكل ذلك مخلوق (١٧).

ج- البيهقي قال: مذهب السلف والخلف من أهل الحديث والسنة، أن القرآن كلام الله وهو صفة من صفات ذاته، وأما التلاوة فهم على طريقتين: منهم من فرق بين التلاوة والتلو، ومنهم من أحب ترك القول فيه، وأما ما نقل عن الإمام أحمد أنه سوى بينهما، فإنما أراد حسم المادة لثلاث يتذرع أحد إلى القول بخلق القرآن، ثم أسند من طريقتين إلى أحمد أنه أنكر على من نقل عنه أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق، وأنكر على من قال لفظي بالقرآن مخلوق، وقال: القرآن كيف تصرف غير مخلوق فأخذ بظاهر هذا الثاني من لم يفهم مراده وهو بين في الأول (١٨).

د- ابن حجر:- قال: اشتد إنكار الإمام أحمد ومن تبعه على من قال لفظي بالقرآن مخلوق (١٩) وقال: إن العالم من شأنه إذا ابتلي في رد بدعة يكون أكثر كلامه في ردها دون مايقابلها، فلما ابتلي أحمد بمن يقول بأن القرآن مخلوق كان أكثر كلامه في الرد عليهم حتى بالغ فانكر على من يقف ولا يقول مخلوق ولا غير مخلوق، وعلى من قال لفظي بالقرآن مخلوق لثلاث يتذرع بذلك من يقول القرآن بلفظي مخلوق، مع أن الفرق بينهما لا يخفى عليه ولكنه قد يخفى على البعض (٢٠).

من خلال هذه الأقوال نستطيع القول :-

- ١- إن أهل السنة والجماعة فرقوا بين أصل الكلام فهو صفة من صفاته غير مخلوق وأما الفاظنا به فهي من أفعالنا وهي مخلوقة، وبذا فإن القرآن غير مخلوق والفاظنا مخلوقة.
- ٢- منع العلماء الخوض في هذه المسألة خشية الإلتباس والوقوع في المحذور وهو القول بخلق القرآن الكريم.
- ٣- وصف الإمام أحمد من خاض في هذه المسألة بأنه مبتدع ليس لهذا القول بالذات، وإنما البدعة بخوضه في مسألة لا داعي للخوض فيها، وقد تكون باباً للعمامة الذين لا يعرفون أصول المسائل والمقائد بالقول بخلق القرآن فيقعون في المحذور.

## المبحث الثاني

### اتهام البخاري بمسألة اللفظ ودوافعهم

دخل البخاري نيسابور مرتين: الأولى سنة تسع ومئتين (٢٠٩هـ)، والثانية سنة خمسين ومئتين (٢٥٠هـ)، وأقام فيها خمس سنوات (٢١). وكان محمد بن يحيى الذهلي عالمها بلا منازع، إليه المرجع في الحديث والرجال والعلل، والذهلي (٢٢) يعلم مكانة البخاري بين العلماء والعوام، ويسمع عن علمه وقوة حافظته وقد كان تلميذاً من تلاميذه، وكان يكنّ له كل تقدير واحترام، وما أن سمع بمقوله إلى نيسابور حتى ندب أهلها لاستقباله، قال الإمام مسلم (٢٣): قال الذهلي في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غداً فليستقبله فإني أستقبله، فاستقبله وعامة علماء نيسابور فدخل البلد ونزل دار البخاريين (٢٤) واستقبله في ذلك اليوم أربعة آلاف رجل على الخيل سوى من ركب بغلاً أو حماراً وسوى الرجال (٢٥) وما ذلك إلا لمكانة البخاري في نفوسهم علماً وتقوى، وكان الذهلي على علم من رأي البخاري في مسألة خلق أفعال العباد وما يتفرع عنها، ولذا فاحتراماً للبخاري وعدم إثارة الفتنة حوله، منع تلاميذه من سؤاله عن هذا الموضوع، وقال: لاتسأله عن شيء من الكلام، فإنه إن أجاب بخلاف مانحن عليه وقع بيننا وبينه، وشمت بنا كل ناصبي ورافضي وجهمي ومرجئ بخراسان (٢٦)، ولبت البخاري بنيسابور مدة تقارب الثلاثة أعوام بين أهلها، وقد ازدحم الناس عليه، وامتألت دار البخاريين وسطوحها، حتى انصرف كثير من تلاميذ الذهلي إلى البخاري، وظهر الخلل في مجلسه، وعابن العلم الغزير، وليس راء كمن سمع. قال أبو حامد الأعمش: رأيت البخاري في جنازة سعيد بن مروان (٢٧)، والذهلي يسأله عن الاسماء والعلل، ويعر

فيه البخاري مثل السهم، كأنه يقرأ قل هو الله أحد، فما أتى على هذا شهر حتى قال محمد بن يحيى: ألا من يختلف إلى مجلسه لا يختلف إلينا، فأنهم قد كتبوا إلينا من بغداد أنه تكلم باللفظ ونهيناه فلم ينته، فلا تقربوه، ومن يقربه فلا يقربنا (٢٨)، وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم، ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه (٢٩). ولعل هذا التنبيه لم يجد مكاناً عند محبي البخاري، فاتبع الذهلي أسلوباً آخر بأن دفع أحد تلاميذه لامتحان البخاري، فلما حضر الناس قام إليه، فقال: يا أبا عبد الله ماتقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أم غير مخلوق؟ فأعرض عنه ولم يجبه، فأعاد السؤال، فأعرض عنه، ثم أعاد فالتفت إليه، وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة، فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا (٣٠)، إذن لماذا يمنع الذهلي بداية أن يُسأل عن هذه المسألة ثم يدعي بعد ذلك أنه كُتب إليه من بغداد، ثم يدفع أحد تلاميذه لامتحانه في مجلسه؟ نترك الإجابة للبخاري حيث سئل عن الذي بينه وبين الذهلي فقال: كم يعترني محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء (٣١). إذن فربما هو الحسد في العلم، وهو لا ينفك عنه إلا القليل، قال السبكي: ولا يرتاب المتصف أن محمد بن يحيى لحفته آفة الحسد التي لم يسلم منها إلا أهل العصمة (٣٢). والبخاري قل من يلحق به، قال الحسين بن محمد المعروف بعييد العجل: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، ومسلم لم يكن ليبلغه، ورأيت أبا زرعة وأبا حاتم يستمعان إليه، وذكر له قصة محمد بن يحيى معه فقال: ما لمحمد بن يحيى بمحمد بن إسماعيل، كان محمد أمة من الأمم، وأعلم من محمد بن يحيى بكذا وكذا، وكان ديناً فاضلاً يحسن كل شيء (٣٣).

وبلغ الأمر بالذهلي أن ضرب حصاراً على تلاميذه وتعصب لذلك أشد التعصب الأمر، الذي دفع بعض تلاميذه إلى أن يضيقوا ذرعاً بمجلسه، فقد قام من مجلسه الإمام مسلم وأحمد بن سلمة، فأخذ الإمام مسلم رداءه فوق عمامته، وقام على رؤوس الناس، وبعث إلى الذهلي جميع ماكتبه عنه على ظهر حمال (٣٤). وما ذلك إلا لمعرفة أن الأمر قد بولغ به وخرج عن حده، وقد جاء إلى البخاري وقال: دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله، ثم سأله عن حديث فذكر له علته، فلما فرع قال مسلم: لا يبغضك إلا حاسد وأشهد أن ليس في الدنيا مثلك (٣٥). وأحمد بن سلمه جاء إليه فقال: يا أبا عبد الله، إن هذا رجل مقبول في خراسان خصوصاً في هذه المدينة، وقد لجّ في هذا الأمر، حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه، فما ترى؟ قال: فقبض على لحيته ثم قال: «وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد» (٣٦) اللهم إنك تعلم، أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً ولا طلباً للرياسة، وإنما أبت عليّ نفسي الرجوع إلى الوطن لغلبة

المخالفين وقد قصد في هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير ، ثم قال : يا أحمد، إني خارج غداً لتخلصوا من حديثه لأجلي (٣٧).

إذن فربما يكون الدافع وراء ذلك هو الحسد كما جاء على لسان البخاري نفسه وتابعه عليه السبكي. فهم قد عرفوا رأيه قبل مجيئه فالأولى ألا يستقبلوه في بلدهم إن كان مخالفاً لهم، وإن أساءوا فهم عبارته فهم يعلمون أن هذه المسألة هي من الفروع التي لا ينبغي أن تثار حولها ضجة، وأن ما يحمله من علم يفيض على هذا، يقول البطلوسي في هذا المقام: وكان ذلك أحد الأسباب التي أوغرت صدور الفقهاء على البخاري فلم يزالوا يرصدون له المكارة حتى أمكنهم فيه فرصة بكلمة قالها فكفروا بها وامتنحوه وطرده من موضع إلى موضع (٣٨) ولذا فهو الحسد المقرون بالتعصب وربما التهيّب الشديد من هذا الموضوع وهو مسألة خلق القرآن لما حصل لأهل السنة فيها ما حصل.

### المبحث الثالث

#### بيان عقيدة البخاري في المسألة

أنهم البخاري في حال حياته كما بينا، ولا يمكن أن يقف مكتوف الأيدي حيالها، فقد دافع عن نفسه قدر المستطاع، ودفاعه عن نفسه معتبر، فهو التقي الورع النقي الذي لا يمكن أن يوارى بكلامه وما عرف التقية ولا آمن بها حتى يستعملها، وما جاء في كتابيه خلق أفعال العباد والصحيح بينة واضحة على عقيدته وحجة دامغة لخصومه، وشهادة أهل السنة والجماعة في عقيدته شهادة براءة ورد اعتبار.

١ - فقد نُقل عن البخاري أنه قال: من قال عني أنني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله (٣٩). وقال له أبو عمرو الخفاف: إن الناس قد خاضوا في قولك: لفظي بالقرآن مخلوق، فقال يا أبا عمرو احفظ عني ما أقول لك: من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمذان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أنني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله، إلا أنني قلت: إن أفعال العباد مخلوقة (٤٠) قال السبكي: تأمل كلامه ما أذكاه ! ومعناه - والعلم عند الله - إني لم أقل لفظي بالقرآن مخلوق؛ لأن الكلام في هذا خوض في مسائل الكلام، وصفات الله لا ينبغي الخوض فيها إلا للضرورة، ولكني قلت: أفعال العباد مخلوقة، وهي قاعدة مغنية عن تخصيص هذه المسألة بالذكر، فإن كل عاقل يعلم أن لفظنا من جملة أفعالنا

وأفعالنا مخلوقة (٤١) بل إن البخاري آلى على نفسه ألا يتكلم في هذه المسألة، وأن كلامه فيها كان اضطراراً فيما لا بد من بيانه، والبيان عند الحاجة واجب، ومع ذلك لم يقل الألفاظ مخلوقة، بل قال وأفعالنا مخلوقة (٤٢). فقد قال لمن تحدث في هذه القضية: يا بني هذه مسألة مشؤومة؛ رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة، وجعلت على نفسي ألا أتكلم فيها (٤٣)، وقد صرح بعقيدته أوضح تصريح فقال: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والقرآن: كلام الله غير مخلوق، وأفضل الصحابة: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، على هذا حييت وعليه أموت وأبعث إن شاء الله (٤٤). فهذا بيان واضح من الإمام بأنه لم يتعرض لهذه المسألة بذاتها (أي أنه لم يقل بان اللفظ بالقرآن مخلوق)، ولكنه تكلم في مسألة خلق أفعال العباد، ولذا كان رده على من رماه في هذه المسألة شديداً عندما وصفه بأنه كذاب، مما يدل على مدى تأثير هذه التهمة في نفسه.

٢- صنف الإمام البخاري مصنفاً سماه: (خلق أفعال العباد) جاء الكتاب في مجمله لبيان ما يدور حول هذه المسألة بالذات، فبدأ الكتاب بحشده لأقوال العلماء التي تثبت أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، ثم نقل الأقوال في ذم الجهمية وقولهم بالقرآن الكريم، ثم شرع ببيان الأدلة على أن القرآن كلام الله وحكم من يقول غير هذا، ثم عقد فصلاً في أفعال العباد بدأه بحديث حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله يصنع كل صانع وصنعتة» (٤٥) وفصل في هذه المسألة تفصيلاً شافياً، ففرق بين القرآن الذي هو كلام الله غير مخلوق وقراءة العباد له فقال: وأفعال العباد مخلوقة، حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلق (٤٦) قال الله تعالى «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم» (٤٧) قال: ومن الدليل على أن الله يتكلم كيف شاء وأن أصوات العباد مؤلفة حرفاً فيها التطريب واللحن والترجيع، حديث (٤٨) أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عندما سئلت عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وصلاته، فقالت: «مالك وصلاته، كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر مانام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح» ونعت قراءته فإذا قراءته حرفاً حرفاً (٤٩). وقال: فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد ويدعيه كل لنفسه، فليس بثابت في كثير من أخبارهم، وربما لم يفهموا دقة مذهبه، بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق، وماسواه مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء فيه العلم، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥٠) وقال: فإن قال قائل: فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما



خرج منه» قيل له: أليس القرآن خرج منه؟! فخروجه منه ليس كخروجه منك إن كنت تفهم، مع أن هذا الخبر لا يصح لانقطاعه وإرساله (٥١). وقال: وقد يقال: فلان حسن القراءة ورديء القراءة ولا يقال: حسن القرآن ورديء القرآن، وإنما نسب إلى العباد القراءة لا القرآن، لأن القرآن كلام الرب جل ذكره، والقراءة فعل العبد، ولا يخفى معرفة هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه ولم يوفقه ولم يهده سبيل الرشاد، وليس لأحد أن يشرع في أمر الله عز وجل بغير علم، كما زعم بعضهم: أن القرآن بالفاظنا وألفاظنا به شيء واحد، والتلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء، ف قيل له: إن التلاوة فعل التالي وعمل القارئ، فرجع وقال: ظننتهما مصدرين. ف قيل له: هلا أمسكت كما أمسك كثير من أصحابك (٥٢)، إذن نجد أن البخاري من خلال هذه المقتطفات اليسيرة من كتابه قد فرق بين القرآن والقراءة وما تفرع عنها، فالقرآن: هو الكلام وهو صفة الله تعالى، والقراءة: هي فعل العبد ولم يقل البخاري في كتابه: إن الألفاظ مخلوقة، فكلامه دقيق جداً وعلى الرغم من ذلك، بين أن الإمساك عن هذه المسألة هو الأسلم.

٣- كذلك عالج الإمام البخاري هذه المسألة في مصنفه الجامع الصحيح، تحت (كتاب التوحيد)، إذ عقد عدة أبواب توضح رأيه، في هذه المسألة، بدأها بباب قوله تعالى «فلا تجعلوا لله أنداداً» (٥٣) وقوله جل ذكره «وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين» (٥٤) (٥٥) قال ابن حجر: وغرضه -هنا- الرد على من لم يفرق بين التلاوة والمتلو، ولذلك أتبع هذا الباب بالتراجم المتعلقة بذلك (٥٦). فذكر باب قوله تعالى «كل يوم هو في شأن» (٥٧) «وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث» (٥٨) وقوله تعالى «لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» (٥٩)، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» (٦٠) (٦١) ومراده بالذكر هنا وعظ الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم وتحذيره من المعاصي فسماه ذكراً وأضافه إليه، إذ هو فاعله ومقدر رسوله على إكتسابه (٦٢). وكذلك باب قوله تعالى: «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه» (٦٣) (٦٤) والذي يظهر، أن مراد البخاري من ذكر هذا الباب وما أورد فيه من أحاديث، الرد على من زعم أن قراءة القارئ قديمة، فأبان بأن حركة لسان القارئ بالقرآن من فعل القارئ بخلاف المقروء فإنه كلام الله القديم (٦٥)، وباب ( قوله تعالى «قل فاتو بالتوراة فاتلوها» (٦٦) (٦٧) ومراده بهذه الترجمة وما ذكر فيها من أحاديث أن يبين أن المراد بالتلاوة، القراءة، وقد فسرت التلاوة: بالعمل، والعمل من فعل العامل (٦٨)، وباب (قول النبي صلى الله عليه وسلم «الماهر بالقرآن مع الكرام البررة» (٦٩) «وزينوا القرآن بأصواتكم» (٧٠) (٧١) وقصده إثبات كون التلاوة فعل العبد فإنها دخلها التزيين والتحسين والتطريب، وهذا يحقق أن التلاوة فعل القارئ، وتتصف بما تتصف به الأفعال، وبالتالي فإن أصوات الخلق وقراءتهم مختلفة

بعضها أحسن من بعض وأزين وأمهر وأرتل (٧٢)، وباب (قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لانتجاوز حناجرهم) (٧٣) وما ذكر فيه من أحاديث مراده، أن تلفظ المنافق بالقرآن كما يتلفظ به المؤمن، فتختلف تلاوتهما والمتلو واحد، فلو كان المتلو غير التلاوة لم يقع فيه تخالف، وبما أن التلاوة متفاوتة بتفاوت التالي فيدل على أنها من عمله (٧٤). فتراجم أبوابه هذه قد أوضحت عقيدته رحمه الله في هذه المسألة، وجلّأها ابن حجر بتعليقاته المفيدة، مما أزال أي غموض في هذه التراجم.

٤- ثم نشي بشهادة العلماء له ومنهم ابن القيم (٧٥)، فبعد أن قرر مذهب السلف وأئمة السنة والحديث، وأنهم يميزون بين ما قام بالعبد وما قام بالرب، وأن القرآن كله كلام الله، حروفه ومعانيه، وأصوات العباد وحركاتهم وأداؤهم وتلفظهم كل ذلك مخلوق، قال: هذا مذهب الإمام البخاري والإمام أحمد وسائر أهل السنة، ولكن خفي على بعضهم تفريق البخاري بذلك، وتمسكوا بالقول المستفيض عن الإمام أحمد: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وقال ابن تيمية: فإن السلف وأئمة السنة والحديث يقولون يتكلم بمشيئته وقدرته وكلامه ليس بمخلوق وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاري وعثمان بن سعيد الدارمي ومن لا يحصى من الأئمة (٧٦) وقال: وكلام البخاري في كتاب خلق الأفعال صريح في أن الله يتكلم بصوت، وفرق بين صوت الله وصوت العباد، وذكر في ذلك عدة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك ترجم في كتاب الصحيح باب في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٧٧)، وقال الذهبي: المسألة هي: أن اللفظ مخلوق، سئل عنها البخاري فوقف فيها، فلما وقف واحتج بأن أفعالنا مخلوقة واستدل لذلك فهم منه الذهلي أنه يوجه مسألة اللفظ فتكلم فيه وأخذه بلازم قوله هو وغيره (٧٨). وما أجمل قول السبكي: وكلام البخاري -عندنا- محمول على ذكر ذلك عند الاحتياج إليه، فالكلام في الكلام عند الاحتياج إليه واجب، والسكوت عنه عند الاحتياج إليه سنة، فافهم ذلك ودع خرافات المؤرخين واضرب صفحاً عن تمويهات الضالّين الذين يظنون أنهم محدثون وأنهم عند السنة واقفون وهم عنها مبعدون، وكيف يظن بالبخاري أنه يذهب إلى شيء من اقوال المعتزلة وقد صح عنه أنه قال: إني لأستجهل من لا يكفر الجهمية (٧٩). قال ابن حجر: ظن بعضهم أن البخاري خالف أحمد وليس كذلك، بل من تدبر كلامه لم يجد فيه خلافاً معنوياً، لكن العالم من شأنه إذا ابتلي في رد بدعة يكون أكثر كلامه في ردها دون مايقابلها، فلما ابتلي البخاري بمن يقول أصوات العباد غير مخلوقة، حتى بالغ بعضهم فقال: والمداد والورق بعد الكتابة، فكان أكثر كلامه في الرد عليهم. وبالف في الاستدلال بأن أفعال العباد مخلوقة بالآيات والأحاديث وأطنب في ذلك حتى نسب إلى أنه من اللفظية (٨٠).

وبعد كل هذا البيان المفصل أستطيع القول:-

١- إن الإمام البخاري رد على خصومه ردّاً شافياً، بيّن من خلاله عقيدته الصحيحة في هذه المسألة، وأنه ليس من اللفظية، بل إنّ جل مبالغ به البخاري هو مسألة خلق أفعال العباد، فأخذ بلازم كلامه لابصريه.

٢- إن الإمام البخاري صنف في هذه المسألة كتابه (خلق أفعال العباد) - فصلها فيه وتعرض من خلاله إلى مسألة اللفظ، وبين أنّ السلامة بعدم التعرض لمثل هذه المسألة، وهذه عقيدة السلف.

٣- إن العلماء الذين جاؤا من بعده كانت الصورة واضحة بين أيديهم في عقيدته، ولذا فإنهم دافعوا عنه وأوضحوا هذه المسألة، وبينوا موقف البخاري منها وأنه أقحم فيها وهو بعيد كل البعد عنها.

## المبحث الرابع

### آثار التهمة

لابد لكل اتهام من أثر، وهذا ما حصل مع الإمام البخاري رحمه الله، إذ لحقه من ذلك الأذى النفسي والعلمي، فأخرج من نيسابور ولوجق إلى بخارى، وأخرج منها، وما حصل لأنتاجه العلمي مما سأبينه بالتفصيل.

### ١- كتابه التاريخ الكبير.

وهو من أهم كتب الجرح والتعديل لإمامة مصنفه في هذا الفن وتقدمه على من جاء بعده ولكن كثيراً من معلوماته قد أخذت دون الإشارة إليه. قال أبو أحمد محمد بن محمد الكرايسي الحاكم الكبير: كنت بالري وهم يقرؤون على ابن أبي حاتم كتاب الجرح والتعديل، فقلت لابن عبدويه الوراق: هذه ضحكة، أراكم تقرؤون كتاب التاريخ الكبير على شيخكم وقد نسبتموه إلى أبي زرعة وأبي حاتم، فقال: يا أبا أحمد إن أبا زرعة وأبا حاتم لما حُمل اليهما التاريخ الكبير، قالوا: هذا علم لا يستغنى عنه ولا يحسن بنا أن نذكره عن غيرنا، فأقعدا عبد الرحمن يسألهما عن رجل بعد رجل وزادا فيه ونقصا (٨١) والسبب الذي حملهما على هذا ما أشيع عن الإمام في مسألة اللفظ، فقد جاء في ترجمة البخاري في كتاب الجرح والتعديل، سمع منه أبي وأبو زرعة ثم تركا حديثه عندما كتب إليهما محمد بن يحيى الذهلي أنه أظهر عندهم أن لفظه بالقرآن مخلوق (٨٢)، ولذا فإن الذهلي كان يرأس العلماء في الأمصار بذلك قال الحاكم. إن من تأمل كتاب مسلم في الاسماء والكنى علم أنه

منقول من كتاب محمد بن اسماعيل مع جلالته ومعرفته بالحديث حذو القدم بالقدم، حتى لا يزيد عليه إلا مايسهل عدّه، وتجلد في نقله حق الجلادة، إذ لم ينسبه إلى قائله، وكان لمحمد بن إسماعيل في التاريخ كتاب لم يسبق إليه، ومن ألف بعده شيئاً في التاريخ أو الأسماء أو الكنى لم يستغن عنه، فمنهم من ينسبه إلى نفسه مثل أبي زرعة وأبي حاتم ومسلم، ومنهم من حكاه عنه، فالله يرحمه فإنه الذي أصل الأصول (٨٣). أما عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني محقق كتاب الجرح والتعديل، فقد حاول في مقدمته أن يتتبع لهم أعداء أخرى ولكنه لم يوفق وأوسع الفجوة، ورد على رواية الحاكم الكبير مفسراً وموضحاً قصد ابن عبدويه ولكنه لم يقنع، فالكتابان موجودان ويستطيع أي طالب علم أن يقارن بينهما، ولم يستطع المعلمي في بداية كلامه عن كتاب الجرح والتعديل ومزيته، إلا أن يذكر كتاب التاريخ الكبير للبخاري، فقال: لكنه خال في الغالب من التصريح بالحكم على الرواة بالتعديل والجرح، وأحسن الإمامان الجليلان أبو حاتم وأبو زرعة وهما من أقران البخاري ونظرائه في العلم والمعرفة والإمامة أحسّاً بهذا النقص فأحبا تكميله، وعلق على كلام أبي أحمد الحاكم الكبير الآنف الذكر فقال: كأنّ أبا أحمد رحمه الله سمعهم يقرؤون بعض التراجم القصيرة التي لم يتفق لأبي أحمد فيها ذكر الجرح والتعديل ولا زيادة مهمة على ما في التاريخ، فاكتفى بتلك النظرة السطحية ولو تصفح الكتاب لما قال ما قال، وقال: لا ريب أن أبا حاتم حذا في الغالب حذو البخاري في الترتيب وسياق كثير من التراجم وغير ذلك، لكن هذا لا يغض من تلك المزية العظمى وهي التصريح بنصوص الجرح والتعديل ومعها زيادة تراجم كثيرة ثم أكد وقال: والتحقيق أن الباعث لهما على إقصاد عبد الرحمن وأمرهما إياه بما أمراه هو الحرص على تسديد ذاك النقص، وتكميل ذاك العلم، ولا أدل على ذلك من اسم الكتاب نفسه، وذكر بأن ابن أبي حاتم قد استغنى بنصوص البخاري بالجرح والتعديل لموافقة أبيه للبخاري في غالب تلك الأحكام، أي أنه كان يقف على ما حكم به البخاري فيراه صواباً في الغالب فيوافقه عليه فينقل عبد الرحمن كلام أبيه، ثم اعترف وقال: بأن المانع من نسبة أحكام البخاري إليه، كتاب محمد بن يحيى الذهلي إليهما فيما جرى للبخاري في مسألة القرآن (٨٤) ١. هـ، كلام المعلمي ملخصاً.

ونلخص ماسبق بمايلي: إن أبا زرعة وأبا حاتم رأيا بأن الكتاب لا يستغنى عنه ولا يحسن أن يذكر عن غيرهما والسبب كتاب محمد بن يحيى الذهلي.

أما المعلمي اليماني: فيرى بأن السبب أن الفاظ الجرح والتعديل فيه قليلة، فأراد أن يغنيها، أما لماذا لم تنسب أقوال البخاري إليه في الكتاب فيقول: لأنها كانت موافقة لأحكام أبيه فاكتفى بحكم أبيه، والسبب أيضاً كتاب محمد بن يحيى الذهلي، ورد على كلام الحاكم الكبير بأن نظره كانت سطحية ولم تكن متعمقة.

## الرد والمناقشة:

١- إن محمد بن إسماعيل علماً من أعلام الجرح والتعديل، وكتابه التاريخ فريد في نوعه في الجرح والتعديل والعلل والكنى وغيرها إذ قال: قل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة ولكنني خشيت الإطالة (٨٥)، بل الكتاب كان محل إعجاب العلماء، وما ذلك إلا لأنه كان فريداً في تصنيفه وترتيبه واحتوائه للمعلومات، فهذا شيخه إسحاق بن راهويه يحمله ويدخله على عبدالله بن طاهر الأمير ويقول: أيها الأمير، ألا أريك سحراً (٨٦) ويقول الترمذي: لم أرَ في معنى العلل والرجال أعلم من محمد بن إسماعيل (٨٧) وقال أبو سهل محمود الشافعي: سمعت أكثر من ثلاثين عالماً من علماء مصر يقولون: حاجتنا من الدنيا النظر في تاريخ محمد بن إسماعيل (٨٨).

أما أبو حاتم وأبو زرعة فهما من تلاميذ البخاري جالساه واستمعا اليه (٨٩). قال إبراهيم الخواص: رأيت أبا زرعة كالصبي جالساً بين يدي محمد بن إسماعيل يسأله عن علل الحديث (٩٠)، بل كان يعتمد قوله في الجرح والتعديل، قال محمد بن حريث: سمعت أبا زرعة وسألته عن ابن لهيعة فقال: تركه أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، وسألته عن محمد بن حميد الرازي فقال: تركه أبو عبدالله، قال محمد بن حريث: فذكرت ذلك لمحمد بن إسماعيل فقال: برّه لنا قديم (٩١)، أي قبل أن يتأثر بما أشاعه الذهلي حوله.

٢- لقد اعترفا بأنه لا يستغنى عنه، وهي شهادة منهما للكتاب، فكيف تكون ألفاظ الجرح والتعديل فيه قليلة؟ وأرادا تكميله؟ وهل لا يكمل الكتاب إلا بغمط حق صاحبه؟ إن من عادة المصنفين أنهم يشيرون إلى المصنف الأسبق الذي اعتمدوا عليه أو قاموا باختصاره أو الزيادة عليه أو انتقاده وهكذا، وما يظهر عدم حسن النية قولهما: ولا يحسن أن يذكر عن غيرنا، وإذا أحسننا النية وقصدنا من ذلك أن هذا الرجل متهم ويمكن ألا يسمع لقوله، فعملنا ذلك محبة به، فإن المحبة تحمل صاحبها على الإيثار، والإيثار أن يدافعاً عنه ويتحملاً معه ماتحملاً لا أن يكونا عوناً لمن أساءوا فهمه.

٣- إن المتبع للتراجم في التاريخ يجد فيه فوائد كثيرة، ومنها ألفاظ الجرح والتعديل فهي واضحة فيه، بل إن صنيعه في الجرح والتعديل كان مثار دراسة وجدل بين العلماء، فحتى من سكت عليه البخاري قيل بأنه ثقة أو غير ذلك (٩٢) وللعلماء في أقواله آراء، قال السيوطي: البخاري يطلق (فيه نظر) (وسكتوا عنه) فيمن تركوا حديثه، ويطلق (منكر الحديث) على من لا تحل الرواية عنه (٩٣) قال ابن حجر: للبخاري في كلامه على الرجال توقُّ زائد وتحَرُّ بليغ يظهر عندنا من كلامه في الجرح والتعديل، فإن أكثر ما يقول: سكتوا عنه، فيه نظر، تركوه، ونحو هذا، وقل أن يقول: كذاب، أو

وضّاع ، وإنما يقول كذبه فلان، رماه فلان (يعني بالكذب)(٩٤)، وعند الكلام عن أئمة الجرح والتعديل فلا يغفل من بينهم الإمام البخاري، فالذهبي عند كلامه على مناهج النقاد يقول: فمنهم من نفسه حاد في الجرح ومنهم ماهو معتدل، ومنهم ماهو متساهل، فالخاد فيهم يحيى بن سعيد وابن معين وأبو حاتم وابن خراش وغيرهم، والمعتدل فيهم أحمد بن حنبل والبخاري وأبو زرعة، والمتساهل كالترمذي والحاكم والدارقطني في بعض الأوقات(٩٥)، وقسم ابن حجر النقاد الى أربع طبقات وجعله في الرابعة فقال: الأولى شعبة والثوري، وشعبة أشد، ومن الثانية يحيى القطان وابن مهدي ويحيى أشد، ومن الثالثة يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى أشد، ومن الرابعة أبو حاتم والبخاري وأبو حاتم أشد(٩٦). فمن اين أخذ منهجه في الجرح والتعديل إلا من كتبه ومن أهمها وأكبرها، التاريخ الكبير. ولم يغفل أحد من العلماء البخاري من بين النقاد إلا ابن أبي حاتم، فقد تجاهله تجاهلاً مقصوداً، فقد ذكر في مقدمة كتابه الجرح والتعديل أئمة الجرح والتعديل وترجم لكل منهم ترجمة طويلة ولم يذكر من بينهم البخاري، فقال: فمن العلماء الجهابذة النقاد الذين جعلهم الله علماء للإسلام وقدوة في الدين ونقاداً لنقلة الآثار؛ فذكر مالك وابن عيينة والثوري وشعبة وحماد بن زيد والأوزاعي ووكيع ويحيى القطان وابن مهدي وابن المبارك وأبو إسحاق الفزاري وعبد الأعلى الدمشقي وأحمد بن حنبل وابن معين وابن المديني وابن غير الهمذاني وأبو زرعة الرازي وختمهم بأبيه(٩٨) بل وصنف كتاباً في بيان خطأ الإمام البخاري في تاريخه(٩٩).

٤- اما نظرة أبي أحمد الحاكم الكبير فلم تكن سطحية، بل كانت متعمقة، ووصفه بذلك غمط لحقه أيضاً، الذي قال : مات محمد بن إسماعيل ولم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى الترمذي في العلم والزهد والورع (١٠٠) فقد كان عارفاً بالبخاري وبمصنفاته ومغرمّاً بتخريجاته، فكان عجبه مما سمعه، مما اضطره للاعتراض.

٥- أما قول ابن أبي حاتم بأنهما تركا حديثه، فإن التهمة لم تثبت عليه حتى يترك حديثه، ولو ثبتت فإن أشد ما قيل فيها أنها بدعة، وهل كل مرتكب بدعة يترك حديثه وآراء العلماء في اخذ الحديث عن المبتدع بينة، قالوا: إذا كانت بدعته مكفرة فلا يؤخذ عنه الحديث، وإذا كانت مفسقة فلا تؤخذ بشرطين إذا كان داعية لبدعته وإذا كانت الرواية في موضوع بدعته(١٠١). والبخاري عن كل هذا بعيد كل البعد.

وتبعهم عبد الرحمن بترك أقواله في الجرح والتعديل، واكتفى بذكر أقوال أبيه مع أنها موافقة لقول البخاري. وهذا إقرار منهم بصواب أقوال البخاري والتسليم بها.

## ثانياً: - الأثر النفسي والملاحقة:

لاشك أن هذا الأمر كان له أثر بالغ على نفسية الإمام البخاري، لا سيما أن هذا الأمر جاء من قبل أقرانه، ورافق هذا تعصب شديد عليه، فكان قوله رحمه الله: ﴿وافوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾ وخرج البخاري من نيسابور، ولكنهم لاحقوه من بلد إلى بلد في خراسان، حتى ظن في النهاية أن رجوعه إلى بلده ربما يسلمه مما هو فيه ولعله يجد فيها راحة النفس والشعور بالأمان والاطمئنان، فاستقبله أهل بلده، وأنشأ فيها مجلسه، ولكن أميرها خالد بن أحمد الذهلي كان شديداً عليه فأراد أن يذله، فبعث إليه أن أحمل إلي كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما لأسمع منك، فقال لرسوله: أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس فإن كان له إلى شيء منه حاجة فليحضر في مسجدي، أو في داري، وإن لم يعجبه هذا فإنه سلطان فليمنعني من الجلوس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لثلاث أكتم العلم» (١٠٢) ولذا فإن البخاري شعر بأن الأمير يريد أن يذله أو أن يجد ذريعة لنتعه من التحديث، فكان جوابه واضحاً بأن العلم يؤتى، وإن لم يعجبه هذا المسلك فليصدر أمره بالمنع حتى يكون معذوراً أمام رب العالمين، ولعله قد بعث له مرة أخرى «بان يحضر منزله فيقرأ الجامع والتاريخ على أولاده فامتنع أيضاً، فراسله أن يعقد مجلساً خاصاً بهم فامتنع وقال لا أخص أحداً (١٠٣) عندها شعر الأمير بصلابة موقفه فأستعان عليه بحريث بن أبي ورقاء وغيره من علماء بخارى ممن يسيرون في ركب الأمير حتى يتكلموا فيما اتهم به، ثم نفاه من بخارى فدعا عليهم (١٠٤) فخرج إلى خرتنك وكان له بها أقرباء، ولكنه كان يشعر بالغربة، فإنه مطارِد ولم يستطع أن يعيش في بلده، ولذا فقد سُمع في ليلة يدعو «اللهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك» (١٠٥) ثم مرض واشتد به المرض حتى جاءه رسول والي سمرقند يدعوه فتهياً ومشى بضع خطوات ليركب الدابة ولكنه قال لمن حوله: أرسلوني فقد ضعفت، فدعا بدعوات ثم اضجع فقبض رحمه الله، فكانت وفاته ليلة الفطر أول ليلة من شوال سنة ست وخمسين ومائتين (١٠٦).

وهكذا انتهت حياته، فلقد طاردوه حتى أنهكوه، فكان الملجأ الأخير له هو الله، فاستجاب لدعائه وأراحه رحم الله البخاري وغفر لحاسديه، والحمد لله رب العالمين.

## الحاشية

وبعد فقد تبين لنا أنّ الإمام البخاري عالم جهبذ، خرج من بيت علم وورع ارتحل وطوف البلاد باحثاً وحاملاً للسنة النبوية، فملك العلم وتبحر فيه، وأن ما اتهم به من مسألة اللفظ بالقرآن الكريم بريء منها، وهناك شواهد كثيرة تدل على ذلك، من أهمها كتابه خلق أفعال العباد، وتراجمه في كتاب التوحيد من الصحيح، وشهادة العلماء بأن عقيدته صافية نقية لاتخالف عقيدة سلف الأمة في هذه المسألة، وأن الحامل على هذه التهمة ربما هو الحسد من قبل أقرانه فأخرجوه من نيسابور ولا حقوة حتى الجثوه إلى بلده بخارى، ثم ألّبوا عليه أميرها فأخرجوه منها، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت وانتصر له ربه فقبض روحه، ثم لاحقوه بعد وفاته، فأساءوا التصرف في كتابه التاريخ الكبير تحت أعدار واهية، وجعلوا منه الجرح والتعديل لابن ابن حاتم وزادوا عليه وأنقصوا، لكن الله كتب لذلك الكتاب البقاء شاهداً على عمله، وصدقة جارية إلى يوم القيامة.

وفي النهاية فإن هذه المحنة ماحطت من قيمته ومكانته، بل رفعتة وزادته تقديراً، وبقي الإمام علماً من اعلام الأمة.

والحمد لله رب العالمين.



### الهوامش

- ١- أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ) تذكرة الحفاظ، دار احياء التراث العربي (٥٥٥/٢) وانظر، رؤوف شلبي، الإمام البخاري ومدرسته الحديثه، مطابع روز اليوسف، ص ٥، ومابعدھا.
- ٢- تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ط ٢، دار المعرفة، (٤/٢).
- ٣- المصدر السابق
- ٤- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، الهند ١٣٢٦هـ، (٤٩/٩).
- ٥- الذهبي، تذكرة الحفاظ (٥٥٦/٢).
- ٦- العسقلاني: تهذيب التهذيب (٤٩/٩).
- ٧- أحمد بن علي الخطيب البغدادي، (٤٦٢هـ) تاريخ بغداد، دار الفكر للنشر والتوزيع (١٣/٢).
- ٨- سورة ق آية ١٨.
- ٩- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (٧١١هـ)، لسان العرب، ط ٢، دار إحياء التراث، بيروت، (٣٠٤-٣٠٣/١٢).
- ١٠- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية دار الفكر العربي ١٩٩٦م، ص ١٥٧-١٥٨.
- ١١- حافظ بن أحمد الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، مطبوعات الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد السعودية (٢٥١/١).
- ١٢- المصدر السابق.
- ١٣- أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والنحل، دار الجيل لبنان، ت محمد ابراهيم نصر، د. عبد الرحمن عميرة (١٦/٣).
- ١٤- شيخ الاسلام أحمد بن تيمه، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمي، ط ١، ١٣٩٨هـ (٣٢٥/١٢) وانظر أيضاً (٢١١-٢٠٦/١٢).

- ١٥- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (١/٢٥٢).
- ١٦- سورة التوبة آية ٦.
- ١٧- ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والنحل (٣/١٨-١٩).
- ١٨- البهيقى، أحمد بن الحسين، الاسماء والصفات، دار الكتب العلمية، بيروت، انظر ص٣٣٧-ص٣٣٩، بتصرف.
- ١٩- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري. شرح صحيح البخاري، ط٤، ١٩٨٨م، دار إحياء التراث بيروت، (١٣/٤٢١).
- ٢٠- المصدر السابق.
- ٢١- الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، شعيب الارناؤوط ، ط١١. ١٩٩٦م، (١٢/٤٠٤).
- ٢٢- محمد بن يحيى بن عبدالله بن خالد الذهلي النيسابوري ثقة حافظ توفي سنة (٢٥٨هـ)، انظر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ط١، دار الكتب الإسلامية باكستان، ١٩٧٣م، ص٣٢٣.
- ٢٣- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ثقة حافظ امام مصنف عالم بالفقه توفي سنة ٢٦١هـ العسقلاني: تقريب التهذيب ص٣٣٥.
- ٢٤- الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٢/٤٥٨).
- ٢٥- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (٢/١٠).
- ٢٦- العسقلاني: هدي الساري مقدمة فتح الباري ، تصحيح واشراف الشيخ عبد العزيز ابن باز مكتبة الرياض الحديثة ص٤٩٠.
- ٢٧- سعيد بن مروان بن علي أبو عثمان البغدادي نزيل نيسابور، توفي في النصف من شعبان سنة ٢٥٢هـ، وصلى عليه الذهلي ومن شهد جنازته البخاري فإنه كان في هذه السنة بنيسابور، انظر العسقلاني: تهذيب التهذيب (٤/٨٠).
- ٢٨- الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٢/٤٥٥).
- ٢٩- العسقلاني، هدي الساري ص٤٩١.
- ٣٠- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (٢/١١).

- ٣١- المصدر السابق (١٣/٢).
- ٣٢- المصدر السابق (١٣-١٢/٢).
- ٣٣- العسقلاني، تهذيب التهذيب (٥٤/٩).
- ٣٤- العسقلاني، هدي الساري، ص ٤٩١.
- ٣٥- الحافظ اسماعيل بن كثير (٧٧٤هـ) البداية والنهاية، ط ٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٠م (٢٦/١١).
- ٣٦- سورة غافر آية ٤٤.
- ٣٧- العسقلاني، هدي الساري، ص ٤٩٢.
- ٣٨- ابو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، ت، د. محمد رضوان الداية، ط ٣، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م، ص ١٦٣.
- ٣٩- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (٣٢/٢).
- ٤٠- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (١٣/٢).
- ٤١- المصدر السابق
- ٤٢- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (٣٣/٢).
- ٤٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٥٧/١٢).
- ٤٤- العسقلاني، تهذيب التهذيب (٥٣/٩).
- ٤٥- الحاكم النسيابوري أبو عبدالله محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين ط ١، ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، (٨٥/١) وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، البيهقي: الاسماء والصفات، ص ٣٣٢.
- ٤٦- محمد بن اسماعيل البخاري، خلق أفعال العباد، نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م، ص ١٣٨.
- ٤٧- سورة العنكبوت آية ٤٩.
- ٤٨- سليمان بن الاشعث السجستاني، السنن، ط ١ مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢م (٣٣٨/١) احمد

بن شعيب النسائي، السنن، ط ١، المطبعة المصرية، ١٩٣٠م، (١٨١/٢)، احمد بن حنبل الشيباني، المسند، المكتب الاسلامي (٢٩٤/٦/٣٠٠).

٤٩- البخاري، خلق أفعال العباد، ص ١٤٦.

٥٠- المصدر السابق ص ١٥٤.

٥١- المصدر السابق ص ١٩٩.

٥٢- المصدر السابق ص ٢٠٠-٢٠١.

٥٣- سورة البقرة، آية ٢٢.

٥٤- سورة فصلت آية ٩.

٥٥- العسقلاني، فتح الباري. شرح صحيح البخاري (١٣/٤٢٠).

٥٦- المصدر السابق.

٥٧- سورة الرحمن آية ٢٩.

٥٨- سورة الانبياء آية ٢

٥٩- سورة الطلاق آية ١

٦٠- سورة الشورى آية ١١

٦١- العسقلاني، فتح الباري. شرح صحيح البخاري (١٣/٤٢٥).

٦٢- المصدر السابق

٦٣- سورة القيامة آية ١٦، ١٧، ١٨.

٦٤- العسقلاني، فتح الباري. شرح صحيح البخاري (١٣/٤٢٥).

٦٥- المصدر السابق

٦٦- سورة آل عمران آية ٩٣. شرح صحيح البخاري (١٣/٤٣٥).

٦٧- العسقلاني، فتح الباري.

٦٨- المصدر السابق

٦٩- النيسابوري: مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ)، الصحيح بشرح النووي، ط ٢، ١٩٧٢م دار الفكر

- لبنان (٨٤/٦). ابن ماجة القزويني: محمد بن يزيد (٢٧٥هـ) السنن ، ط ٢ ، دار الفكر لبنان (٤١٥/٢). الشيباني: أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) المسند، المكتب الاسلامي بيروت (٩٨/٢/٢٦٦/٢٣٩/١٧٠).
- ٧٠- السجستاني: سليمان بن الأشعث (٢٧٥هـ) السنن ط ١، ١٩٥٢م، شركة مصطفى البايي الحلبي (٣٣٨/١). النسائي: أحمد بن شعيب، السنن ط ١ ، ١٩٣٠م، دار الكتاب العربي (١٧٩/٢). ابن ماجة القزويني، السنن (٤٠٤/١). الشيباني: أحمد بن حنبل، المسند (٢٨٣/٤ / ٢٨٥ / ٢٩٦ / ٣٠٤).
- ٧١- العسقلاني، فتح الباري. شرح صحيح البخاري (٤٤٤/١٣).
- ٧٢- المصدر السابق
- ٧٣- المصدر السابق
- ٧٤- المصدر السابق
- ٧٥- ابن القيم ،محمد بن ابي بكر عرف بابن قيم الجوزية ، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد، الرياض (٣٠٦/٢).
- ٧٦- شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، مجموع الفتاوى (٢١٨/٦).
- ٧٧- المصدر السابق (٥٧٦/٦).
- ٧٨- الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٥٧/١٢).
- ٧٩- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (١٢/٢).
- ٨٠- العسقلاني، فتح الباري ، شرح صحيح البخاري (٤٢١/١٣).
- ٨١- الذهبي، تذكرة الحفاظ (٩٧٨/٣).
- ٨٢- ابو محمد عبد الرحمن بن ابي حاتم الرازي، (٣٢٧هـ) الجرح والتعديل، ط ١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٢م (١٩١/٧).
- ٨٣- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (١٠/٢).
- ٨٤- الرازي، الجرح والتعديل، انظر المقدمة (١/ ط ، ي ، يا).
- ٨٥- الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٠٠/٣٢).

- ٨٦- العسقلاني، هدي الساري ص ٤٨٣.
- ٨٧- العسقلاني، تهذيب التهذيب (٥٣/٩).
- ٨٨- الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٢٦/١٢).
- ٨٩- انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (٣٠/٢).
- ٩٠- الذهبي، سير اعلام النبلاء (٤٠٧/١٢).
- ٩١- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (٢٣/٢).
- ٩٢- انظر في هذا، عذاب محمود الحمش، رواة الحديث الذين سكت عليهم أئمة الجرح والتعديل بين التوثيق والتجهيل، ط ٢، دار حسان للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٧ م.
- ٩٣- جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، تدريب الراوي شرح تقريب النواوي، عبد الوهاب عبد اللطيف (٣٤٩/١).
- ٩٤- العسقلاني، هدى الساري ص ٤٨٠.
- ٩٥- الذهبي، الموقظة في علم مصطلح الحديث، عبدالفتاح ابو غدة، دار البشائر، ص ٨٣.
- ٩٦- العسقلاني، التكت على كتاب ابن الصلاح، د. ربيع بن هادي، ط ٢، ١٩٨٤ م، منشورات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة (٤٨٢/١).
- ٩٧- الرازي، الجرح والتعديل (١٠/١).
- ٩٨- انظر الجزء الأول من الجرح والتعديل.
- ٩٩- د. اكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، ط ٣، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٥ م، ص ١٧٩.
- ١٠٠- الذهبي، تذكرة الحفاظ (٩٧٧/٣).
- ١٠١- السيوطي: تدريب الراوي، (٣٢٥/١).
- ١٠٢- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (١٤/٢).
- ١٠٣- المصدر السابق
- ١٠٤- المصدر السابق
- ١٠٥- المصدر السابق
- ١٠٦- المصدر السابق (١٥/٢).